مفهوم التصوُّف
وأَثره في الفكر الإِسلامي

The concept of Sufism and its impact on Islamic thought

تقدم به الباحث

م.د. علي عبد المنعم قاسم

Ali Abdel Moneim Qasim

Ali.abd.qasim@alirqia.iq

ملخَّص البحث

يستخلص البحث أبرز التحديات الفكرية التي تواجه التَّصوف مع التَّركيز على التصوّف الحقيقي بعيداً عن الخرافات . دعوة فكرية لرجوع المجتمع لمجاهدة النّفس بالطريقة الصحيحة التي أمر بها النبي والسّلف الصَّالح وعلماء التصوف العاملين.

Research Summary:

The research extracts the most prominent intellectual challenges facing Sufism , focusing on true Sufism , free from superstitions . It is an intellectual call for society to return to the struggle against the self in the correct manner , as commanded by the Prophet , the righteous predecessors, and practicing Sufi scholars.

المقدمة

يُعَدّ التصوّف أحد المظاهر الروحية البارزة في التاريخ الإسلامي ، حيث مثّل نزعةً عميقة في البحث عن حقيقة الإيمان ، والسمو بالروح ، والابتعاد عن مظاهر المادّة الزائلة . وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في تحديد معناه وحدوده ، وتباينت الرؤى بين من اعتبره جوهر الدِّين القائم على الإخلاص لله ، وبين من رأى فيه مذهبًا خاصًّا له طرائقه ومناهجه في تزكية النفس وتهذيبها . وعلى مرّ العصور ، أثار التصوف جدلاً واسعًا ، لا سيما مع ما رافقه من مدارس فكرية وتجارب روحية وممارسات متنوّعة وفلسفات أخرى ، جعلته موضوعًا غنيًا بالبحث والدراسة .

وتأتي أهمية دراسة التصوف من كونه ظاهرةً دينيةً وفكريةً متشابكة الأبعاد ، تجمع بين العقيدة والسلوك ، والفلسفة والتجربة ، والأدب والفن . فالتصوف ليس مجرد جانب تعبّدي ، بل هو أيضًا تيار ثقافي وفكري أثّر في ميادين شتى ، وأسهم في تشكيل ملامح الحضارة الإسلامية . ومن هنا، كان لزامًا على الباحث أن يسلط الضوء على مفاهيمه ، وأصوله ، ومصـــادره ، وأعلامه ، ودوره في الإبداع الأدبي ، بما يحقق الفهم المتوازن لهذه الظاهرة .

يقسم هذا البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة :

المبحث الأَوَّل : يتناول المدخل التعريفي للتَّصوف ، ويشتمل على ثلاثة مطالب : المطلب الأَوَّل يقدّم تعريف التَّصوف لغةً ، وذلك باستقصاء دلالات الكلمة وأصولها اللغوية ، والمطلب الثَّاني : يعرّف التَّصوف اصطلاحًا كما ورد في كتب التُّراث وكتابات الباحثين ، أما المطلب الثَّالث : فيعرض ما قيل في التَّصوف من آراء العلماء والمفكرين ، قديمًا وحديثًا .

المبحث الثَّاني : يركّز على البنية الفكرية للتَّصوُّف ، ويضم ثلاثة مطالب : المطلب الأَوَّل : يوضّح مفهوم التصوف ومقاصده الجوهرية ، والمطلب الثَّاني : يسلّط الضوء على المصادر التي استقى منها المتصوفة معارفهم ، سواء كانت من القرآن الكريم أو السُّنَّة النَّبوية أو السَّلف الصَّالح، فيما يعرض المطلب الثَّالث : مفهوم التَّوحيد عند الصُّوفيَّة ، وأبعاده الرُّوحية والفكرية ، ومكانته في البناء العقدي لديهم .

المبحث الثَّالث : يتناول التجربة الصُّوفيَّة في بعدها الإنساني والإبداعي ، ويتكون من مطلبين: المطلب الأَوَّل : يقدّم نماذج من أبرز رجال التَّصوف الذين تركوا بصمة واضحة في الفكر والسلوك

والأدب ، أَمَّا المطلب الثَّاني : فيبحث في دور التصوف في الإبداع الأدبي ، وكيف انعكس في الشعر والنثر ، وأساليب التَّعبير الرُّوحي والفنِّي .

إنَّ دراسة التصوف في هذا الإطار الشامل ، الذي يجمع بين الجانب النظري والتطبيقي، تتيح للقارئ تكوين رؤية متكاملة حول هذه الظاهرة ، بعيدًا عن الصور النمطية أو الأحكام المسبقة . كما تمكّن الباحث من إدراك عمق البعد الرُّوحي في الحضارة الإسلامية ، وفهم إسهامات المتصوفة في البناء الثقافي والفكري ، بما يسهم في إغناء الدراسات الإسلامية والأدبية على حد سواء .

ولعل هذا البحث ، بما يقدّمه من تحليل واستقراء ، يفتح آفاقًا جديدة للدارسين في إعادة قراءة التصوف قراءة واعية ، تقوم على التَّوثيق العلمي ، والنَّظر المتوازن ، والرَّبط بين المعطيات التاريخية والفكرية والأدبية . ومن ثمّ ، فهو يسعى ليكون لبنةً مضافةً في خدمة التراث الإسلامي ، وإبراز الوجه المشرق من مسيرة التصوف ، بوصفه مسارًا روحياً وفكريًا أثّر في أجيال متعاقبة ، وترك إرثًا غنيًا يستحق التأمل والبحث .

المبحث الأَوَّل
تعريف التَّصوُّف لغةً اصطلاحاً

المطلب الأَوَّل : تعريف التَّصوُّف لغةً :

التصوف بهؤلاء قبيل المائتين من الهجرة . قيل هو من الصّوف يقال تصوّف أي لبسه ، ولكنهم لم يختصوا بلبسه . وقيل من الصفة أي صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الصفاء واللغة مانعة منه انتهى .[١] والتصوُّف : هو طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزْكُو النفْسُ وتسمو الروح[٢] ؛ ولم تعرف العرب التصوف بمعناه الاصطلاحي كما عند الصوفية ؛ يقول ابن تيمية[٣] : وظهر لفظ التصوف أول ما ظهر في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري .[٤]

الطلب الثَّاني : تعريف التَّصوُّف إصطلاحاً :

«وواضح أن تعريف الطريق عند الإمام أبو الحسن الشاذلي هو تعريف التصوف الإسلامي بكامل هيئته ومعناه ومغزاها ، وفي ذلك يقول أبو الحسن y الصوفي أربعة أوصاف :

١ - التخلق بأخلاق الله عزوجل .

٢ - المجاورة لأوامر الله .

٣ - ترك الانتصار للنفس حياء من الله .

---

(١) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ = ١٥٦٩ - ١٦٥٩م) ، تحقيق : د. محمد كشّاش طرابس ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨م ، ١٩٦ .

(٢) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، دار الدعوة ، باب الصَّاد ، ٥٢٩ .

(٣) ابن تيمية عبد السلام بن عبد الله بن الخضر الحراني : الشيخ ، الإمام ، العلامة ، فقيه العصر ، شيخ الحنابلة ، مجد الدين ، أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن علي الحراني ، ينظر : سير أعلام النُّبلاء ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ٢٩١/٢٣ .

(٤) شعر أبي الحجاج يوسف الثالث ملك غرناطة ، شريف عبد الحليم محمد عويضة ، إشراف: د. عبد الله رمضان خلف مرسي ، جامعة المدينة العالمية ، فبراير ٢٠١٤م ، ٨٩ .

٤ - ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله .»[١]

ثم قال : « التصوف : مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل وقيل تصفية القلب عن موافقه البرية ومقارفة الطبعية وإخماد وصفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية ، ومنازل الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع رسوله r في الشريعة «[٢] .

وقيل : ترك الاختيار ، وقيل بذل المجهود والأنس بالمعبود ، وقيل حفظ حواسك مع مراعاة أنفاسك . وقيل : الإعراض عن الاعتراض ، وقيل : هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله التفرغ عن الدنيا[٣] .

قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى :

« التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية «[٤] .

ويقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله:

« (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب ، وإفرادها لله تعالى عما سواه . والفقه لإصلاح العمل ، وحفظ النظام ، وظهور الحكمة بالأحكام . والأصول (علم التوحيد) لتحقيق المقدمات بالبراهين ، وتحلية الإيمان بالإيقان ، كالطب لحفظ الأبدان ، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك) «[٥] .

---

(١) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان ، محمد بن الشيخ عبد الكريم الكسنزان الحسيني صوفي ، مكتبة دار المحبة - حلبوني- سوريا- دمشق ، دار آية – بيروت ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م ، ١٨٤/١٣ .

(٢) التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٣٢٢هـ - ٣٩٢هـ، ٩٣٣ - ١٠٠١م) ، تحقيق : ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م ، باب التاء ، ٥٩ ؛ الرِّسالة القشيريَّة ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ = ٩٨٦ - ١٠٧٢م) ، تحقيق : الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، الدكتور محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه التَّعريفات ، ٦٠ ؛ الرِّسالة القشيريَّة ، ٤٤٤ .

(٤) هامش الرِّسالة القشيريَّة ، تعريف التَّصوُّف ، ١٧ .

(٥) حقائق عن التَّصوُّف ، السيد عبد القادر بن عبد الله بن قاسم بن محمد بن عيسى عزيزي الحلبي الشاذلي (١٣٣٨ - ١٤١٢هـ = ١٩٢٠ - ١٩٩١م) ، دار العرفان ، حلب – سورية ، ط١٦ ، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م ، ١٧ .

قال سيد الطائفتين الإمام الجنيد[١] رحمه الله :

(التصوف استعمال كل خلق سني ، وترك كل خلق دني)[٢] .[٣]

وقال بعضهم :

(التصوف كله أخلاق ، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف)[٤] .

وقال أبو الحسن الشاذلي[٥] رحمه الله :

(التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية)[٦] .

المطلب الثَّالث : ما قيل في التَّصوُّف :

من قال بالتصوف المعتدل ، سواء من المتصوفة أو من غيرهم ، فإنه استند إلى ما يلي :

١ - نسبة التصوف إلى الصوف . والصوف لباس مشروع .

٢ - تعريف التصوف بأنه الزهد . والزهد مشروع .

٣ - تعريف التصوف بأنه خلق وسلوك . والخلق والسلوك مشروع .

٤ - الثناء على أئمة التصوف ، وسلوكهم . بأنهم كانوا قمما في الزهد والسلوك .[٧]

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي ، والده الخزاز ، هو شيخ الصوفية ، وتفقه على أبي ثور . وسمع من السري السقطي ، وصحبه ، ومن الحسن بن عرفة . وصحب أيضا الحارث المحاسبي ، وأبا حمزة البغدادي . وأتقن العلم ، ونطق بالحكمة ، سمع الكثير، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة ، ورزق الذكاء وصواب الجواب ، ينظر : سير أعلام النّبلاء ، ١٤/٦٦-٦٧ .

(٢) الرِّسالة القشيريَّة ، ١/١١٩ .

(٣) حقائق عن التصوف ، ١٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤ ، ١١ .

(٥) أبُو الحَسَن الشَّاذِلي (٥٩١ - ٦٥٦ هـ = ١١٩٥ - ١٢٥٨م) ، علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشَّاذلي المغربي ، أبو الحسن رأس الطائفة الشاذلية ، من المتصوفة ، وصاحب الأوراد المسماة « حزب الشاذلي . ولد في بلاد « غمارة « بريف المغرب ، وتفقه وتصوف بتونس ، وسكن « شاذلة « قرب تونس ، فنسب إليها ، ينظر : الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس ، الزركلي الدمشقي (١٣١٠ - ١٣٩٦ هـ = ١٨٩٣ - ١٩٧٦م) ، دار العلم للملايين ، ط١٥- أيار / مايو ٢٠٠٢م ، ٤/٥٠٣ .

(٦) حقائق عن التَّصوُّف ، ١٨ .

(٧) ينظر : إرشيف ملتقى أهل التصوف ، ٣١/٤٢ : http://www.ahlalhdeeth.com .

وأما من قال بأن التصوف فلسفي ، ليس فيه اعتدال ، فإنه استند إلى ما يلي :

١ - إنكار نسبة التصوف إلى الصوف .

٢ - إنكار أن يكون موضوع التصوف هو الزه د.

٣ - القول بأن التصوف خلق ، لكنه طريق خاص في الخلق .

٤ - التفريق بين التصوف والمنتسبين إليه في الحكم على التصوف .[١]

(١) ينظر : إرشيف ملتقى أهل التصوف ، ٤٢/٣١ : http://www.ahlalhdeeth.com .

المبحث الثَّاني
مفهوم التصوف ومصادره ومعنى التَّوحيد

المطلب الأَوَّل : مفهوم التَّصوُّف :

ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة ، مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما أثاروا الذبول والخمول والتواضع والإنكار والتخفي والتواري ، فيقـــال : (صوفي) نسبة إلى الصوفة ، كما يقـــال : (كوفي) نسبة إلى الكوفة ، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم[١] .

١. التَّصوف هو تجريد العمل لله تعالى ، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة ، والميل إلى التواضع والخمول ، وإماتة الشهوات في النفس .

٢- وذهب قسم كثير من العلماء إلى أن سبب التسمية للمتصوفة بهذا الاسم – الصوفية - إنِّما كان نسبة إلى لبسهم الصوف .

٣- يرى بعض العلماء أن التَّصوف مأخوذ عن الصفاء ؛ أي صفاء أسرارهم أو صفاء قلوبهم أو صفاء معاملتهم لله تعالى .

٤- وبعضهم يرى أنّه نسبة إلى الصُّفة - مكان في مؤخرة المسجد النبوي - التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضوان الله عليهم في المسجد .[٢]

كما أنَّ اطلاق هذا المصطلح لا يعني خروجه عن الدِّين بل جميع المصطلحات راعية للشريعة مالم تخرج عن الأصول : يرى أبو حامد الغزالي[٣] أن مقاصد البشر محصورة في المقاصد الدينية

---

(١) ينظر : التَّصَوُّفُ المنشَأ وَالمَصَادر ، إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفي : ١٤٠٧هـ) ، إدارة ترجمان السنة ، لاهور – باكستان ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م ، ٢٧ .

(٢) ينظر : دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية ، الدكتور صالح الرقب- الدكتور محمود الشوبكي ، الجامعة الإسلامية- غزة ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦ م ، ٤ .

(٣) الغزالي أبو حامد : الشيخ ، الإمام ، البحر ، حجة الإسلام ، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، الشافعي ، الغزالي ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط ، فبرع في الفقه في مدة قريبة ، ومهر في الكلام والجدل ،

والدنيوية ، ولا ينتظم أمر الدين إلا بانتظام أمر الدنيا ، مما يضمن أسباب المعيشة من زراعة وصناعة وسياسة ، بل إنه يصف المجتهدين من فقهاء الإسلام بأن كل واحد منهم كان فقيها في مصالح الخلق ، ويرى أن مفهوم العلم شامل مطلق غير مقيد بالعلم الشرعي وحده [١] .

ويمتدح هنا الإمام الغزالي صفة الأخلاق بقوله : أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة . [٢]

إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها[٣] .

وبهذا يقول الإمام أبو حامد الغزالي : « إني علمت يقيناً أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى ، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء . وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى «[٤] .

« وقيل خمس من الأخلاق : هي من علامات علماء الآخرة : مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل ؛ الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

حتى صار عين المناظرين ، وأعاد للطلبة ، وشرع في التصنيف ، ينظر : سير أعلام النبلاء ، ١٩/٣٢١.٣٢٢ .

(١) ينظر : مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام ، د. عمار الطالبي ، بلا ت.ط . ٢١ .

(٢) إحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي : ٥٠٥هـ) ، دار المعرفة – بيروت ، ١/٧٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان ، ١٣/٢٠ .

فأما الخشية فمن قوله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴿٢٨﴾ ﴾[١] ؛ أي : أي العالمين بجلاله وكماله ، إذ الخشية متوقفة على معرفة المخشيّ[٢] ؛ وأما الخشـــوع فمن قوله تعالى : ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ ﴿١٩٩﴾ ﴾[٣] ، أَي : مطيعين مخبتين له U ، لا يجحدون أحكام الله وما أمر ببيانه للناس مقابل منافع تحصل لهم[٤] ؛ وأما التَّواضع فمن قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[٥] ، أَي : أي ألِن جانبك للمؤمنين[٦] ؛ وأما حســن الخلق فمن قوله تَعَالَـــى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ ﴿١٥٩﴾ ﴾[٧] ، أَي : ؛ وأما الزهد فمـــن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ ﴿٨٠﴾ ﴾[٨] ، أَي : أي ما عند الله من جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات وهو الجنة خير من حطام الدنيا الفاني[٩] ، فإن أصل الدِّين التوقِّي من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر .. لكن لتوقيه ..

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .. «[١٠] .

المطلب الثَّاني : مصادر الصُّوفيَّة :

أَوَّلاً : القرآن الكريم :

المصدر الأول للتصوف ، حيث يستند المتصوفة إلى آيات تدعو للزهد ، والإخلاص ، والتوبة، ومحبة الله ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ ﴿١٢٠﴾ ﴾[١١] ، أَي : المعصية في السر

(١) سورة فاطر ، جزء من الآية : (٢٨) .
(٢) أيسر التَّفاسير لكلام العلي الكبير ، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط٥ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ٣٥٢/٤ .
(٣) سورة آل عمران ، جزء من الآية : (١٩٩) .
(٤) أيسر التَّفاسير ، ٤٢٨/١ .
(٥) سورة الحجر ، جزء من الآية (٨٨) .
(٦) أيسر التَّفاسير ، ٩٢/٣ .
(٧) سورة آل عمران ، جزء من الآية : (١٥٩) .
(٨) سورة القصص ، جزء من الآية : (٨٠) .
(٩) أَيسر التَّفاسير ، ١٠١/٤ .
(١٠) إحياء علوم الدِّين ، ٧٧/١ .
(١١) سورة الأنعام ، جزء من الآية : (١٢٠) .

والعلانية ، سره وعلانيته ، قليله وكثيره[١] ، وقوله : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾[٢] ؛ أَي : أي انقطع إليه في العبادة وفي طلب الحاجة وفي كل ما يهمك[٣] .

ثانياً : السُّنَّة النَّبويَّة :

تعتمد على أحاديث تحث على الزهد ومجاهدة النفس ، مثل حديث النَّبي r : ((ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس))[٤] .

ثالثاً : سير الزُّهَّاد الأَوائل من الصَّحابة والتَّابعين :

أمثلة : أبو ذر الغفاري[٥] ، الحسن البصري[٦] ، إبراهيم بن أدهم[٧] . استنباطاً من قوله تعالى أَيضاً : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ٢٨ ﴾[٨] ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾: أي إحبسها . ﴿ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ

(١) ينظر : مختصر تفسير ابن كثير ، تأليف وتحقيق : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم، بيروت ـ لبنان ـ ط٧ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م ، ٦١٢/١ .

(٢) سورة المزّمِّل ، الآية : (٨) .

(٣) أيسر التَّفاسير لكلام العلي الكبير ، ٤٥٥/٥ .

(٤) المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (٣٢١ - ٤٠٥هـ ، ٩٣٣ - ١٠١٥م) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤١١ – ١٩٩٠ ، كتاب الرّقاق ، ٣٤٨/٤ ؛ قال الحاكم صحيح الإسناد ، ينظر : أنِيسُ السَّاري في تخريج وَتحقيق الأَحاديث التي ذكرها الحَافظ ابن حَجر العسقلاني في فَتح البَاري ، نبيل بن منصور بن يعقوب بن سلطان البصارة الكويتي ، تحقيق : نبيل بن مَنصور بن يَعقوب البصارة ، مؤسَّسَة السَّماحة ، مؤسَّسَة الريَّان ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م ، حرف الهمزة ، ٥٣٠/١ .

(٥) أبو ذر الغفاري : صاحب رسول الله r وهو من أعيان الصحابة قديم الإسلام أسلم بمكة قبل الهجرة ورجع إلى بلاد قومه ولم يشهد مع النبي r ، تاريخ دمشق ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ = ١١٠٥ - ١١٧٦م) ، تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م ، ١٧٤/٦٦ .

(٦) الحسن البصري أبو سعيد : هو الحسن بن أبي الحسن يسار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، الأنصاري . ويقال : غير ذلك . واسم أمه : خيرة . كانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة ، فيبكي وهو طفل ، فتسكته أم سلمة بثديها ، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير ، فكانوا يدعون له ، فأخرجته إلى عمر ، فدعا له ، وقال : اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس ، ينظر : سير أعلام النّبلاء ، ٥٦٣/٤ .

(٧) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق : زاهد مشهور . كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد ، وجال في العراق والشام والحجاز وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة ، الأعلام ، ٣١ .

(٨) سورة الكهف ، جزء من الآية : (٢٨) .

﴾ : أي طاعته ورضاه ، لا عرضاً من عرض الدنيا ، ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾: أي لا تتجاوزهم بنظرك إلى غيرهم من أبناء الدنيا . ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ ﴾ ، أي : بمجالستك الأغنياء تريد الشرف والفخر .(١)

« ولا مقصود في التصوف الحق إلا معرفة الله . والعبودية المحضة . ولزوم العدل في السير أينما توجه الإنسان «(٢) .

« أن التصوف الحق هو المنهج الشرعي العملي الذي لا يستغني عنه كل مسلم في سبيل التحقق بالإيمان الذوقي والمقام الإحساني والتخلق بالآداب النبوية والالتزام بالأحكام الشرعية ، وتزكية النفوس ، والتخلص من العلائق والعوائق ، وما إلى ذلك من المقامات السامية التي كان عليها فخر الكائنات وسيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وأصحابه الكرام ، وسلفنا الصالح رضوان الله عليهم «(٣) .

المطلب الثَّالث : التَّوحيد عند الصُّوفيَّة :

« إجتمعت الصوفية على أن الله واحد أحد فرد صمد قديم عالم قادر حي سميع بصير عزيز عظيم جليل كبير جواد رؤوف متكبر جبار باق أول إله سيد مالك رب رحمن رحيم مريد حكيم متكلم خالق زراق موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته ، ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض لا اجتماع له ولا افتراق لا يتحرك ولا يسكن ولا ينقص ولا يزداد ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا جوارح ولا أعضاء ولا بذي جهات ولا أماكن (٤).

لا تجري عليه الآفات ولا تأخذه السنات ولا تداوله الأوقات ولا تعينه الإشارات لا يحويه مكان ولا يجري عله زمان لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار «(٥) . وقال بعضهم التوحيد سر وهو تنزيه الحق

(١) ينظر : أيسر التفاسير ، ٢٥١/٣ .

(٢) المعسول ، محمد المختار بن علي بن أحمد الإلغي السوسي (١٣١٨ - ١٣٨٣ هـ = ١٩٠٠ - ١٩٦٣م) ، ط دار النجاح، الدار البيضاء ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م ، ٢٦/١٩ .

(٣) حقائق عن التَّصوُّف ، ٨ .

(٤) التَّعرّف لمذهب أهل التَّصوُّف ، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى : ٣٨٠هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ٨٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ٣٤.٣٣ .

عن دركه[١] .

فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾ ﴾[٢] ، أَي : ؛ وفي النبوة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣] .[٤]

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال : إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته ، بكمال أحديته ، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي لأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل ، والتوحيد علمك وإقرارك بأن اللَّه فرد فِي أزليته لا ثاني مَعَهُ ، ولا شيء يفعل فعله ، ومن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة . والطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم .[٥]

وأصول التَّوحيد ثلاثة : « معرفة الله بالربوبية والإقرار له بالوحدانيَّة ونفي الأنداد عنه جملة «[٦] . « والتوحيد هُوَ الحكم بأن اللَّه واحد والعلم بأن الشيء واحد أَيْضًا توحيد يقال وحدته إِذَا وصفته بالوحدانية «[٧] .

وعن أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول : « أركان التصوف عشرة : أولها تجريد التوحيد ثم فهم السماع وحسن العشرة وإيثار الإيثار وترك الاختيار وسرعة الوجد والكشف عن الخواطر وكثرة الأسفار وترك الاكتساب وتحريم الادخار معنى تجريد التوحيد أن لا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل ، وفهم السماع أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط «[٨] .

---

(١) المصدر نفسه ، ٨٣ .

(٢) سورة الأنبياء ، جزء من الآية : (٢٢) .

(٣) سورة البقرة ، جزء من الآية : (٢٣) .

(٤) ينظر : إحياء علوم الدِّين ، ٩٦/١ .

(٥) ينظر : الرِّسالة القشيريَّة ، ٢٣/١ ، ٤٦٣/٢ .

(٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (٣٣٦ - ٤٣٠هـ = ٩٤٨ - ١٠٣٨م) ، السعادة - بجوار محافظة مصر ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ٣٥٥/١٠ .

(٧) الرِّسالة القشيريَّة ، ٤٦٢/٢ .

(٨) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ٨٩ .

وجاء في كتاب حلية الأولياء : « ليس في خزائن الله أكبر من التوحيـد «[١] . « ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد : وهو قول لا إله إلا الله ؛ ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك : محمد رسول الله ؛ وَأَلْزَمَ الْخَلْقَ تَصْدِيقَهُ فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرَ عنه من أمور الدنيا والآخرة «[٢] .

قال القشيري : « (اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، وصانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة) وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : (كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل)[٣] .

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٩٦/١٠ .

(٢) إحياء علوم الدِّين ، ٩١/١ .

(٣) المصدر نفسه إحياء علوم الدِّين ، ٣٠٢/٢ ؛ مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي ، د. محمود يوسف الشوبكي ، بلا ت.ط ، ٣٩ .

المبحث الثَّالث
نماذج من رجال التَّصوف ومؤلَّفاتهم

المطب الأوَّل : نماذج من رجال التَّصوُّف :

أَوَّلا : معروف الكرخي[١] :

أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد وتكلم في علوم الحقائق وهو إمام البغداديين في الإشارات وله حكايات تكثر تستغني بشهرته عن ذكره والإطناب[٢] ، وكان يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي[٣] . كان أبواه نصرانيين ، فأسلما إلى مؤدبهم ، وهو صبى . وكان المؤدب : يقول له قل : ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد الصمد ، فضربه على ذلك ضرباً مفرطاً ، فهرب منه . فكان أبواه يقولان : ليته يرجع ألينا ، فرجع أليهما ، فدق الباب ، فقيل : من ؟ ، قال : معروف ! ، فقالا : على أي دين ؟ ، قال : دين الإسلام ؛ فأسلم أبواه . وقيل له ، في علته : أوص ؟ فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا ، فأن احب أن اخرج من الدنيا عريانا ، كما دخلتها عريانا [٤] .

---

(١) معروف بن فيروز الكرخي ، أبو محفوظ. أحد السادات ، مجاب الدَّعوة ، أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي ، وقيل الفيروزان ، وقيل علي ، الكرخي الصالح المشهور ، وهو من موالي علي بن موسى الرضا - وكان أبواه نصرانيين ، ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (٦٠٨ - ٦٨١ هـ = ١٢١١ - ١٢٨٢م) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٠٠م ، ٢٣١/٥ ؛ طبقات الأولياء ، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ = ١٣٢٣ - ١٤٠١ م) ، تحقيق : نور الدين شريبه من علماء الأزهر ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ط٢ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م ، ٢٨٠-٢٨١ .

(٢) تاريخ دمشق ، ١٦٧/٢٠ .

(٣) ينظر : إحياء علوم الدِّين ، باب فضيلة الإخلاص ، ٣٧٨/٤ .

(٤) طبقات الأولياء ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ .

ثانياً : سري السقطي[١] :

كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد ، ملازماً بيته لا يخرج منه ولا يراه إلا من يقصده . وكان تلميذ معروف الكرخي . قيل : كان يوماً في دكانه فجاء معروف ومعه صبي يتيم ، فقال لي : اكسه[٢] . قال سري : فكسوته ، ففرح به معروف ، فقال : بغض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه ! « . قال : (فقمت من الدكان وليس شيء أبغض إلي من الدنيا وما فيها ، وكل ما أنا فيه من بركاته)[٣] .

ثالثاً : محمَّد الغزَّالي :

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي ، أحد أئمَّة الشَّافعيَّة في التصنيف والترتيب والتحقيق ، ولم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله ، اشتغل في مبدأ أمره بطوس ، وله ترجمة مجموعة من كلام الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وابن النجار وابن الصلاح ، وشيخنا الذهبي في تاريخه وغيرهم ، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، وجد في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه ، وصنف في ذلك الوقت ، وكان أستاذه يتبجح به ، ولم يزل ملازما له إلى أن توفي ، فخرج من نيسابور إلى العسكر ، ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه وبالغ في الإقبال عليه ، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل ، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس ، فظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان .[٤]

وانتقل إلى البيت المقدس ، واجتهد في العبادة ، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة ، ويقال إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب ، ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب « الوسيط « و « البسيط « و « الوجيز

(١) سري السقطي ، أبو الحسن سري بن المغلس السقطي أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة ؛ كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه ، وكان تلميذ معروف الكرخي ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٣٥٧/٢ .

(٢) طبقات الأولياء ، ١٦٠ .

(٣) طبقات الأولياء ، ١٦٠ .

(٤) يُنظر : وفيَّات الأعيان ، ٢١٥/٤-٢١٦ ؛ طبقات الشافعيين ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) ، تحقيق : د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٥٣٣/١ .

« و « الخلاصة « في الفقه ، ومنها « إحياء علوم الدين « وهو من أنفس الكتب وأجملها ، وله في أصول الفقه « المستصفى « .[١]

رابعاً : أحمد الغزَّالي :

« أبو الفتاح أحمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي الملقب مجد الدين أخو الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي ؛ كان واعظا مليح الوعظ حسن المنظر صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء ، غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أَخيه أي حامد لما ترك التدريس زهادة فيه . واختصر كتاب أخيه أبي حامد المسمى بإحياء علوم الدين في مجلد واحد وسمَّاه لباب الإحياء ، وله تصنيف آخر سماه الذخيرة في علم البصيرة . وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلاً إلى الانقطاع والعزلة «[٢] ، ومن كلامه : (من كان في الله تلفه كان على الله خلفه)[٣] .

المطب الثَّاني : دور التَّصوُّف في الإبداع الأدبي :

سوف أقوم بذكر الشَّخصيَّات المعروفة وسرد الأشعار فقط للإختصار وأختص منها الشّعر الَّذي فيه العشق الإلهي ومن الله التوفيق :

رابعة العدويَّة[٤] :

قال الثوري[٥] لرابعة ما حقيقة إيمانك قالت ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حباً له وشوقاً إليه وقالت في معنى المحبة نظماً :

---

(١) يُنظر : المصد نفسه ، ٢١٧/٤ .

(٢) وفيَّات الأعيان ، ٩٧ ؛ طبقات الشَّافعيَّة ، ٥٤٦ .

(٣) طبقات الأولياء ، ١٠٢ .

(٤) رابعة العدوية : أم عمرو بنت إسماعيل العتكية أم الخير (٠٠٠ - ١٣٥هـ = ٠٠٠ - ٧٥٢م) البصرية ، الزاهدة ، العابدة ، الخاشعة ، مولاة آل عتيك ، صالحة مشهورة ، من أهل البصرة ، ومولدها بها . لها أخبار في العبادة والنسك ، توفيت بالقدس . يُنظر : الأعلام ، ١٠/٣ .

(٥) سُفْيان الثَّوري : (٩٧ - ١٦١هـ = ٧١٦ - ٧٧٨م) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، من بني ثور بن عبد مناة ، من مضر ، أبو عبد الله . كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ، وخرج منها سنة ١٤٤هـ فسكن مكة والمدينة . ثم انتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا . له من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير كلاهما في الحديث ، وكتاب في الفرائض ، يُنظر : المصدر نفسه ، ١٠٤/٣-١٠٥ .

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا .(١)

وقولها أَيضاً :

« حبكَ حبينِ حبَّ الهوى
وحبًا لأنكَ أهلٌ لذاكا « .(٢)

وقال ابن المبارك(٣) :

« إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع «(٤)

وقال ابن الفارض(٥) :

« زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّراً ⁂ وارحمْ حشىً بلظي هواكَ تسعَّراً
و إذا سألتكَ أنْ أراكَ حقيقةً ⁂ فاسمَحْ ، ولا تجعلْ جوابي : لن تَرَى
يا قلبُ ! أنتَ وعدتَني في حُبّهمْ ⁂ صبراً فحاذرْ أنْ تضيقَ وتضجرا
إنّ الغَرامَ هوَ الحَياة ، فَمُتْ بِهِ ⁂ صَبّاً ، فحقّكَ أن تَموتَ ، وتُعذَرَا
قُل لِلّذِينَ تقدّمُوا قَبْلي ، ومَن ⁂ بَعْدي ، ومَن أضحى لأشجاني يَرَى ؛
عني خذوا ، وبيَ اقْتدوا ، وليَ اسْمعوا ، ⁂ وتحدَّثوا بصبابتي بينَ الورى(٦)

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ٣٤٨/٩ ؛ إحياء علوم الدِّين ، ٣١٠/٤.

(٢) رابعة العدوية : سيرتها وأشعارها ، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، وكالة المطبوعات ، بلا ت.ط ، ٨٥ .

(٣) ابن المُبَارَك (١١٨ - ١٨١هـ = ٧٣٦ - ٧٩٧م) ، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبد الرحمـن ، لحَافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجا ومجاهدا وتاجرا . وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء . كان من سكان خراسان ، ومات بهيت (على الفرات) ، ينظر : الأعلام ، ١١٥/٤ .

(٤) إحياء علوم الدِّين ، ٣٥٧/١ .

(٥) ابن الفارِض : (٥٧٦ - ٦٣٢هـ = ١١٨١ - ١٢٣٥م) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، أبو حفص وأبو القاسم ، شرف الدين ابن الفارض ، أشعر المتصوفين . يلقب بسلطان ، العاشقين . فنشأ بمصر في بيت علم وورع . ولما شبّ اشتغل بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر ، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره . ثم حبّب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وتجرد ، ينظر : الأعلام ، ٥٥/٥ .

(٦) اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، عبد السلام بن عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن الطالب بن محمد -فتحا- ابن سودة (المتوفى : ١٤٠٠هـ) ، تحقيق : محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٤١٧

ولقدْ خلوتُ معَ الحبيبِ وبيننا ** سِرٌّ أرَقّ مِنَ النّسيم ، إذا سرَى
وأباحَ طرفي نظرةً أمَّلتها ** فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكَّراً
فدهشتُ بينَ جمالهِ وجلالهِ ** وغدا لسانُ الحالِ عني مخبراً
فأدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِن وَجْهِهِ ، ** تَلْقَى جَميعَ الحُسْنِ ، فيهِ ، مُصَوَّرا «[1] .

وقال جنيد البغدادي :

« سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراضا بقرب الله في ظل قدسه ... تجول به أرواحهم وتنقل «[2] .

وقال محيي الدِّين إبن عربي[3] :

« فإن عَظُمَتْ منّي ذنوبٌ تكاثَرَتْ ... فعفوُك عن تلك الجرائمِ أَعظمُ
وقد غرَّني جَهلي بِقُبْحِ خَطيئتي ... وقد دَلنّي عِلمي بأنّكَ أَكرمُ
إذا كنتَ تُقْصيني وأنتَ ذَخيرتي ... لمن أشتكي حالي ومن فيه يَحكُمُ
لئن كان طَردي عن حِماك مُحلَّلاً ... فمَيلي إلى مولىً سِواكَ مُحرَّمُ
وإن كان دمعي من صدودِكَ شافعي ... فما حيلتي إلاّ البُكا والتَّندُّمُ «[4]

هـ - ١٩٩٧م ، ٣٤٤/١ ؛ ديوان ابن الفارض ، أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي المعروف بابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢هـ = ١١٨١ - ١٢٣٥م) ، تحقيق : يوسف نجم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ١٦١ .

(١) اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، ٣٤٤/١ ؛ ديوان ابن الفارض ، ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، ٣٦٣/٤-٣٧٣ .

(٣) الشيخ محيي الدين ابن عربي : محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي ، والمعروف بابن عرب ي، صاحب التصنيفات في التصوف وغيره ، ولد في شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية ، ذكر أنه سمع بمرسية من ابن بشكوال ، وسمع ببغداد ومكة ودمشق ، يُنظر : فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (٦٨٦ هـ - ٧٦٤ هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ط١ ، ٤٣٥/٣ .

(٤) الحب الإلهي في شعر المقدسي ، د. علي حيدر - د. عيسى فارس - ماهر عبد القادر ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٩) العدد (١) ٢٠٠٧ ، ١٨ .

أهم النَّتائج:

بعد دراسة موضوع التصوف في إطار هذه المباحث الواردة في هذا البحث ، أمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج التي تعكس الأبعاد الروحية والفكرية والأدبية لهذه الظاهرة في الحضارة الإسلامية ، ويمكن عرضها على النحو الآتي :

١. أظهرت الدراسة أن للتصوف جذورًا لغوية متصلة بمعاني الصفاء والنقاء ، والزهد في الدنيا ، والحرص على الإخلاص لله تعالى . أما على المستوى الاصطلاحي ؛ فقد تنوعت التعريفات بين ما هو سلوكي أخلاقي يركّز على تهذيب النفس وتطهير القلب ، وما هو فلسفي رمزي يميل إلى التعبير عن التجربة الروحية بأسلوب إشاري .

٢. وقد تبين أن ما قيل في التصوف عبر العصور يعكس ثنائية القبول والنقد ؛ فهناك من عدّه لبّ الإيمان وصفوته بل مرحلة الإحسان ، وهناك من حذّر من بعض الانحرافات التي ظهرت على أيدي بعض المنتسبين إليه . وهذا الأمر طبيعي جداً فإنَّ الإنحرافات تتواجد مع جميع الأفكار والأديان ؛ تبعًا للزمان والمكان وأحوال أتباعه .

٣. مفهوم التصوف عند أهله يقوم على أساسين : التخلّي عن الصفات المذمومة ، والتحلّي بالصفات المحمودة ، بحيث يصبح السالك خالص النية لله ، عامر القلب بمحبة الخالق .

٤. كما تبين أن مصادر الصوفية الأصلية تتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأقوال السلف الصالح ، غير أن بعض التجارب الصوفية تأثرت بالفلسفات الهندية والفارسية واليونانية ، الأمر الذي أضاف أبعادًا فكرية خاصة .

٥. أما التوحيد عند الصوفية ، فقد كان محورًا أساسياً في عقيدتهم ، لم يخالفوا به جمهور السَّلف ؛ وأما بعض المصطلحات مثل «الفناء» و«البقاء» على الرّغم أَنِّي لم أذكره في بحثي أرادوا به توحيد الله وحده ، والتجرّد من إرادة النفس وهو ما منح التصوف عمقًا روحياً متفردًا .

٦. أعلام التصوف لم يكونوا مجرد متعبّدين منعزلين ؛ بل كانوا علماء ومصلحين ومفكِّرين وأدباء تركوا إرثًا فكريًا وأدبيًا خالدًا ، مثل الجنيد البغدادي ، ورابعة العدوية ، وابن عربي ، وجلال الدين الرُّومي . وقد أثرت أقوالهم وتجاربهم في الفكر الإسلامي .

٧. وأخيراً أَنَّ التَّصوُّف في صورته النَّقية ، يمثل مسارًا إيمانيًا وأخلاقيًا يربط بين العلم والعمل ، والفكر والسلوك ، والنص الشرعي والتجربة يتطلب العودة إلى أصوله المستمدة من الكتاب والسنة .

التَّوصيات

١. العودة إلى المصادر الأصيلة للتَّصوف ، المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، لضمان فهم التصوف في صورته النقية بعيدًا عن الممارسات والدخائل التي شوهته .

٢. تشجيع الدراسات العلمية الموضوعية حول التصوف ؛ بحيث تجمع بين التحليل التاريخي والقراءة الفكرية .

٣. إبراز دور أعلام التصوف في الفكر والأدب من خلال مناهج التعليم والبرامج الثقافية ؛ لتسليط الضوء على إسهاماتهم في النهضة الروحية والأدبية على مر العصور والحقب ، وإبعاد التّرّهات عنهم .

٤. إعادة إحياء القيم الأَخلاقية الصُّوفية الإسلاميَّة ؛ مثل الإخلاص ، والزُّهد ، والتَّواضع ، والمحبَّة ، وتطبيقها على أرض الواقع وبالأخص مجتمعنا اليوم يشتكي من مظاهر الانحلال الأخلاقي والدِّيني والعقائدي .

٥. الاستفادة من الأدب الصوفي في إثراء الإبداع المعاصر ، عبر دراسة رموزه وأساليبه الفنية لفك شفرتهم في التَّعبير ، وتوظيفه في الشعر والنثر الحديث بما يتناسب مع ذائقة الأجيال الجديدة .

٦. تنقية التراث الصوفي من النُّصوص والممارسات التي تخالف أصول العقيدة والهويَّة الإسلاميَّة ، بما يخدم الدِّين والمجتمع .

٧. فتح مجالات للحوار العلمي بين المختصين في العلوم الشرعية والفكرية والأدبية حول التصوف الحقيقي الَّذي يسعى لتربية النَّفس وليس التَّصوُّف المزيَّف ، بغية رجوع المجتمعات إلى ربِّهم وخالقهم .

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .
٢. إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع ، عبد السلام بن عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن الطالب بن محمد -فتحا- ابن سودة (المتوفى : ١٤٠٠هـ) ، تحقيق : محمد حجي ، دار الغرب ٣. الإسلامي، بيروت ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .
٤. إحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد الغزالي الطوسي (المتوفي : ٥٠٥هـ) ، دار المعرفة . بيروت .
٥. إرشيف ملتقى أهل التصوف ، http://www.ahlalhdeeth.com .
٦. الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس ، الزركلي الدمشقي (١٣١٠ - ١٣٩٦ هـ = ١٨٩٣ - ١٩٧٦م) ، دار العلم للملايين ، ط١٥- أيار / مايو ٢٠٠٢م .
٧. أنِيسُ السَّاري في تخريج وَتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحَافظ ابن حَجر العسقلاني في فَتح البَاري ، أبو حذيفة ، نبيل بن منصور بن يعقوب بن سلطان البصارة الكويتي ، تحقيق : نبيل بن مَنصور بن يَعقوب البصارة ، مؤسَّسَة السَّماحة ، مؤسَّسَة الريَّان ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .
٨. أيسر التَّفاسير لكلام العلي الكبير ، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط٥ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
٩. تاريخ دمشق ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ = ١١٠٥ ـ ١١٧٦م) ، تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م .
١٠. التَّصَوُّفُ المنشَأ وَالمَصَادر ، إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفي : ١٤٠٧هـ) ، إدارة ترجمان السنة ، لاهور ـ باكستان ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .
١١. التَّعرّف لمذهب أهل التَّصوُّف ، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى : ٣٨٠هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت .
١٢. التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٣٢٢هـ - ٣٩٢هـ ، ٩٣٣ - ١٠٠١م) ، تحقيق : ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

١٣الحب الإلهي في شعر المقدسي ، د. علي حيدر ـ د. عيسى فارس ـ ماهر عبد القادر ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٩) العدد (١) ٢٠٠٧ .

١٤ـ حقائق عن التصوف ، السيد عبد القادر بن عبد الله بن قاسم بن محمد بن عيسى عزيزي الحلبي الشـــاذلي (١٣٣٨ ـ ١٤١٢هـ = ١٩٢٠ ـ ١٩٩١م) ، دار العرفـان ، حلب ـ سورية ، ط١٦ ، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م .

١٥ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠هـ = ٩٤٨ - ١٠٣٨م) ، السعادة - بجوار محافظة مصر ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٦ـ دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية ، الدكتور صالح الرقب- الدكتور محمود الشوبكي ، الجامعة الإسلامية- غزة ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦م .

١٧ـ ديوان ابن الفارض ، أبو حفص شرف الدين عمر بن علي المعروف بابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢هـ = ١١٨١ - ١٢٣٥م) ، تحقيق : يوسف نجم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م .

١٨ـ رابعة العدوية ، سيرتها وأشعارها ، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، وكالة المطبوعات ، بلا ت.ط .

١٩ـ الرسالة القشيرية ، عبد الكريم القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ = ٩٨٦ - ١٠٧٢م) ، تحقيق : الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، الدكتور محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، بلا ت.ط .

٢٠ـ سير أعلام النُّبلاء ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبـي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسـة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٢١ شعر أبي الحجاج يوسف الثالث ملك غرناطة ، شريف عبد الحليم محمد عويضة ، إشراف: د. عبد الله رمضان خلف مرسي ، جامعة المدينة العالمية ، فبراير ٢٠١٤م .

٢٢ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفـي (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ = ١٥٦٩ - ١٦٥٩م) ، تحقيق : د. محمد كشّاش طرابس ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨م .

٢٣. طبقات الأولياء ، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ = ١٣٢٣ - ١٤٠١ م) ، تحقيق : نور الدين شريبه من علماء الأزهر ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ط٢ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

٢٤. طبقات الشافعيين ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٠٠ ـ ٧٧٤هـ) ، تحقيق : د أحمد عمر هاشم ، د محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية .

٢٥. فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (٦٨٦ هـ - ٧٦٤ هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ط١

٢٦. مختصر تفسير ابن كثير ، تأليف وتحقيق : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ـ لبنان ـ ط٧ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م .

٢٧. المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (٣٢١ - ٤٠٥هـ، ٩٣٣ - ١٠١٥م) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤١١ – ١٩٩٠ .

٢٨. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، دار الدعوة ، بلا ت.ط .

٢٩. المعسول ، محمد المختار بن علي بن أحمد الإلغي السوسي (١٣١٨ - ١٣٨٣ هـ = ١٩٠٠ - ١٩٦٣م) ، ط دار النجاح، الدار البيضاء ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م .

٣٠. مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي ، د. محمود يوسف الشوبكي ، بلا ت.ط ،

٣١. مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام ، د. عمار الطالبي ، بلا ت.ط .

٣٢. موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان ، محمد بن الشيخ عبد الكريم الكسنزان الحسيني ، مكتبة دار المحبة - حلبوني- سوريا- دمشق ، دار آية – بيروت ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .

٣٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (٦٠٨ - ٦٨١ هـ = ١٢١١ - ١٢٨٢م) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٠٠م .